

## «ابن الرومي» بين يدي الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

أحمد محمد عبيدان

حين ينظر الناظر إلى أعمال الدكتور شوقي ضيف الكثيرة المتنوعة، لا يملك إلا أن يجد للرجل أكثر من وجه، فهو أولاً مؤرخ للأدب، وهو ثانياً ناقد متمكن من أبرز ناقديه، وهو ثالثاً مفكر من مفكري التراث وخبير من خبرائه، وهذا التعدد في شخصية الرجل العلمية، يصيب بالحيرة كل من أراد أن يكتب عن هذه الشخصية العلمية الموسوعية الخصب، فأى الجوانب يترك وأيها يختار؟.

وحين عنّ لي، أن أشارك في الكتابة عن هذه الشخصية العلمية والأدبية البعيدة الغور المتعددة الجوانب، أشفقت على نفسي ألا يكون ما أكتبه في مستوى عمق الرجل وشمولية أعماله، وهو بالقطع لن يكون كذلك مهما حاولت، وقصارى ما يمكن أن يفعله مثلي، هو أن يحسن اختيار الجانب الذى ينبغي أن يتناوله في أعمال علم فذ في حجم الدكتور شوقي ضيف، وقد هدانى عقلى بعد طول تفكير، إلى أن أجعل من اهتمامى بشاعر عربي كبير - هو ابن الرومي - مداراً للحديث، وشجعتى على ذلك ما وجدته في أعمال أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، من اهتمام كبير وحفاوة باللغة بذلك الشاعر المغبون، فحديثى إذن سيكون عن «ابن الرومي» كما رآه الدكتور شوقي ضيف.

حفاوة بالتراث..

في البداية، أحب أن أشير إلى أن اهتمام الدكتور شوقي ضيف بشاعرية «ابن الرومي» لم يأت من فراغ أو بالأحرى لم يكن وليد الصدفة، بل قد كان نتاجاً مباشراً لعمل شاق ودقيق، في مسح وغربة التراث عامة، والتراث الشعري خاصة من «امرئ القيس» حتى «أحمد شوقي»، مما أتاح للدكتور شوقي ضيف بعد هذا العمل الشاق الدقيق، أن يرى أن «تراثنا الشعري بدءاً من تراث الأمم الشعري، فهو يحمل لنا حياة أسلافنا على اختلاف صورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويعل لنا أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم، ودقائق حكمتهم

وخبراتهم وكل ما عاشوه من خير وشر وعدل وظلم ويقين وشك ونعيم وشقاء، غير أن كثرة هذا التراث لا تزال بعيدة عن أيدي القراء وأعينهم، إذ لا تزال مخطوطة، وبالتالي لا تزال محجوبة عنهم في الخزائن العامة والخاصة، ونفس ما نشر ينقص أكثره العناية والتحقيق، مما يفسره ويفسد متعة قلوبنا وعقولنا به، كما يفسد أحكامنا عليه وتقويتنا له تحقياً صحيحاً مضبوطاً»<sup>(١)</sup>.

ولعل هذه المعرفة الشمولية العميقة بدقائق التراث الشعري العربي على طول تاريخه، هي التي جعلت أستاذنا يقف على أرض راسخة، حين يدافع عن ذلك التراث ضد النظرات السطحية، والأحكام السريعة الجائرة - وما أكثرها - فيقول وهو على حق: «وليس من شك في أن أكثر الأحكام فساداً وضلالاً على هذا التراث، ما يقال من أنه ليس إلا مدحاً وهجاءً ورتاءً، وأن المديح يشغل الحيز الأكبر منه، وهو ليس إلا ملقاً واستجداءً ولغوياً وغناء لا غناء فيه، وهو قول ناشئ عن نقص في فهم هذا الفن، ونقص آخر في استقصاء نماذجه ودراستها دراسة متعمقة، إذ لم يكن فن استجداء وملق كما يقال، وكما قد يتبادر لمن يحكمون على الأشياء بظواهر دون بواطنها الحقيقية، وإنما كان فن تمجيد لزعاماتنا ويطولاتنا على مر التاريخ، مما يحيله وثائق تاريخية رائعة لا لسير زعماننا، وأبطالنا الماضين فحسب، بل أيضاً لما تطلب أسلافنا فيهم من خلال إنسانية رفيعة»<sup>(٢)</sup>.

إن الشاعر الأموي لم يكن مناققاً - في رأى أستاذنا الدكتور شوقي - وهو يناصر الخلفاء الأمويين ويمدحهم، وإلا فإننا نتهم بالنفاق الجماعة الإسلامية التي تعاونت مع أولئك الخلفاء، وهي الكتلة الضخمة من الأمة<sup>(٣)</sup>، كما أن الشاعر العباسي، كان يعبر عن الجماعة الإسلامية ومثلها الرشيدة، وهو يستضىء بهذه المثل في مديح الوزراء والولاة والقواد، بل هو يجسدها فيهم جميعاً تجسيداً قوياً، وكأنه يريد بها أن تصبح قواعد عامة في الجماعة<sup>(٤)</sup>.

لم يكن ذلك إلا أنموذجاً من دفاع أستاذنا المستمر، عن تراثنا الشعري، أمام المستهينين به، وهو دفاع لا يقوم على مجرد عاطفة خالصة، أو حماسة مشروعة، بل يقوم مع ذلك، وربما قبله، على علم راسخ واستقصاء طويل، وبصيرة نقدية ثابتة.

(١) د. شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف ط (٢)، القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢ - ١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥.

## مع ابن الرومي:

لا بد من أننا سننتظر من رجل في علم ومنزلة الدكتور شوقي ضيف، حين يعرض لشاعر في منزلة «ابن الرومي»، أن يجعلنا نقف بدقة على سرار شاعريته، وأن يقودنا بمصباحه النقدي الهادي عبر دهاليز تلك الشاعرية ومنعطفاتها المتشابهة.

وربما كان «عباس محمود العقاد» هو أول من لفت النظر إلى «ابن الرومي» في كتاب كامل عنه، غير أن كتاب «العقاد» وجه عنايته في الدرجة الأولى إلى حياة الشاعر من خلال شعره، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب.

أما كتابات شوقي ضيف عن «ابن الرومي»، وهي متوزعة في ثنايا كتبه، فقد احتفلت أكثر بشعر الشاعر، وركزت اهتمامها على خصائص فنه، وعلى معانيه وأخيلته وأغراضه الشعرية، وسنحاول في هذه الصفحات، أن نلقى بعض الضوء على شخصية «ابن الرومي» وشاعريته، كما رآها أستاذنا الكبير الدكتور شوقي ضيف.

## إنصاف الشاعر:

من الجدير أن نلاحظ منذ البداية، أن الدكتور «شوقي ضيف» لم يتوان عن إنصاف «ابن الرومي» الذي أهمله كثير من النقاد القدماء والمعاصرين، فهو يرد إليه حقه، ويضعه مع الفحول الأفاضل من شعراء العربية، مثل «أبي تمام» و «المتنبي» و «أبي العلاء»<sup>(١)</sup>، وهو أيضاً يشير إلى امتياز أفكاره وأخيلته النادرة، ويلفت النظر إلى ما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة في أشعاره، وخاصة الجناس، ويشي أن له أذنا موسيقية رائعة، وكل ذلك - في رأيه - حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبي، لشعبية كانت متأصلة في ذات نفسه، والحق أنه كان شاعراً بارعاً، بل لا شك - والكلام للدكتور - في أنه أبرع شعراء العصر، لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعاني والأخيلة المبتكرة، مما يملأ النفس إعجاباً متصللاً به وبأشعاره<sup>(٢)</sup>.

وحين يجعل أستاذنا من «ابن الرومي» أبرع شعراء عصره، فإنه يكون بذلك قد أنصفه وأنزله المنزلة التي يستحقها في تاريخ الشعر العربي، وهو لا ينزله تلك المنزلة خبط عشواء، بل يفعل ذلك بعد مقارنات دقيقة أجراها بين شعراء العصر وبين «ابن الرومي».

(١) د. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف ط (٥)، القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٥٦.

(٢) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٣٢٤.

## بين ابن الرومي والبحترى

فهو يقارن بين «ابن الرومي» و «البحترى» فيخلص إلى أن «ابن الرومي» كان يمثل بحق النزعة التجديدية في العصر، على أن «البحترى» يمثل النزعة التقليدية فيه<sup>(١)</sup>، وإن كان الشاعران يشتركان في أنها ليسا من أصحاب التصنيع، فإذا كان «ابن الرومي» قد اهتم في صياغته باستخدام لوني الطباق والجناس، فإن «البحترى» كان يصنع الشيء نفسه مع ميل إلى الإكثار من الطباق، وهي أشياء تسقط في بعض شعرها وقد لا تسقط، إذ هي لا تعد بمثابة المذهب عندهما<sup>(٢)</sup>. ويبقى الفرق بينهما ما «إـء لله آ آ» «البحترى» يستعير أدوات الطباق والجناس، كان «ابن الرومي» يوسع هذه الاستعارة إلى أدوات من الثقافة والمنطق والتشخيص والتجسيم، ونفس الأدوات التي اتفقا في استعارتها اختلفا في استخدامها.. فقد كان «البحترى» يعجب بالطباق أكثر مما يعجب بالجناس، بينما كان «ابن الرومي» يعجب بالجناس أكثر مما يعجب بالطباق»، ونفس الجناس اختلفا في استخدامه، فبينما كان «البحترى» يستخدم الجناس الكامل، كان «ابن الرومي» يكثر من استخدام جناس الاشتقاق، وليس هذا كل ما بينها، إذ اختلفا في صنعة الأسلوب نفسه، إذ كان «البحترى» يعنى بصفاء تعبيره حتى يحدث فيه صناعته الصوتية الخاصة<sup>(٣)</sup>.

وفي خضم هذه الموازنة الفنية الدقيقة بين الشاعرين، لا ينسى أستاذنا أن يرصد العلاقة الشخصية بينهما، التي بدأت في شكل منافسة امتدت حتى انقسم الأدباء بإزائها قسمين، قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين، وهم أنصار «البحترى»، وقسماً مقابلاً هو أنصار «ابن الرومي» وفي مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر<sup>(٤)</sup>. وقد أورد الدكتور شيئاً من هجاء «ابن الرومي» لخصمه «البحترى»<sup>(٥)</sup> على أثر هذه المنافسة الحادة، ويبين لنا الدكتور ضيف كيف أن المنافسة لم تزل حادة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء، فتصافيا وتوادا، واعترف كل منهما بفضل صاحبه<sup>(٦)</sup>.

(١) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٣١٣.

(٢) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ص ٩، القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٤) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

(٥) يقول «ابن الرومي» في مطلع هذه القصيدة البائية التي قالها في هجاء «البحترى»:

ما أنسى لا أنسى «هنذا آخر الحقب على اختلاف صرف الدهر والعقب

وقد ورد في ديوانه من هذه القصيدة ستة وثمانون بيتاً، وقد كانت أطول من ذلك في الأصل كما يشير ناسخ

الديوان. انظر: ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصار، ج١: ١٦٩/١٩٦ وقد أورد الدكتور شوقي

ضيف البيتين رقم (٣٧) و (٥٤) من هذه البائية، انظر العصر العباسي الثاني، ص ٣٠٥.

(٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

بين «ابن الرومي» و «ابن المعتز»:

وحين يعرض أستاذنا للموازنة بين «ابن الرومي» و «ابن المعتز»، نجد أنه يلمس أولاً، أهم الجوانب المشتركة بينها كما فعل عند الموازنة بين «ابن الرومي» و «البحترى»، ويجد أن أهم جانب يشترك فيه «ابن المعتز» مع «ابن الرومي» هو الطابع الشعبي في الأسلوب واللغة، ويظهر هذا الطابع الشعبي عند الشاعرين أكثر ما يظهر في الغزليات والخمريات، وثبت أستاذنا الكبير لـ «ابن الرومي» تفوقاً واضحاً على قرينه، فهو يرى أن أحداً لم يستطع أن يتفوق على «ابن الرومي» في تصويره لأثر الخمر في نفوس المجان، وما تحدث فيهم من السرور وانفاس الأمل حتى ليتخيلون إمكان وقوع المستحيل وحدوثه، كما صور ذلك في قوله<sup>(١)</sup>:

وملامة كحشاشة النفس	لطفت عن الإدراك والحس
لنسيجها في قلب شاربها	روح الرجاء وراحة النفس
وتمد في أمل ابن نشوتها	حتى يؤمل مرجع الأمس

ويخلص أستاذنا من الموازنة بين الشاعرين، إلى أن «ابن الرومي» لم يكن أبرع تصويراً من قرينه لأثر الخمر فحسب، بل لقد كان أيضاً أكثر منه شعبية، ذلك أن «ابن المعتز» كان أميراً من أبناء القصور، بينما كان «ابن الرومي» من أبناء الشعب، فتأصلت الشعبية في نفسه، مما جعله يقترب اقتراباً كبيراً في شعره، خمره وغزله وغيرهما، من أغراض شعره من اللغة البغدادية اليومية، حتى ليستحيل كثير من أشعاره إلى ما يشبه صحيفة شعبية، بما صور فيها من ألوان السكان ببغداد على اختلاف مشاربهم ومنازعاتهم إذ نرى رؤية واضحة للحكام والقضاة والعلماء من كل صنف، والكتاب والبزازين والطارقين والحبازين والحمالين والشوانين والشحاذين، كل أولئك وأضربهم يرسمون في أشعاره، وترسم معهم ملابسهم، حتى ملابس البؤساء المرفعة والبالية<sup>(٢)</sup>.. وهكذا فإن نتيجة الموازنة النهائية تجيء لصالح «ابن الرومي»، سواء من حيث قوة تأثير خمرياته، أو من حيث شعبيته التي انعكست على شعره شكلاً ومضموناً.

(١) د. شوقي ضيف، الشعر وطوايحه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٢٢، وانظر: ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصار، جـ (٣)، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٦م ١١٧٤/٩٥٣، ورواية عجز البيت الأول في الديوان: (لطفت عن الإدراك باللمس).

(٢) د. شوقي ضيف، الشعر وطوايحه الشعبية، مرجع سابق، ص ١٢٣.

بين «ابن الرومي» و «الحمدوني»:

«الحمدوني» هو إسماعيل بن إبراهيم، ولقب «الحمدوني» نسبة إلى جده «حمدي» صاحب الزنادقة لعهد «الرشيد»<sup>(١)</sup>، وقد اشتهر بأشعاره الساخرة المضحكة في شاه هزيلة، أهداها له أحد رجال العصر وهو «سعيد بن أحمد بن خو سندا» وفي طيلسان أخضر بال أهداه له آخر هو «أحمد بن حرب المهلبى» وقد نظم في الشاه والطيلسان مقطوعات عديدة، حتى إن مقطوعاته الساخرة في الطيلسان وحده بلغت خمسين مقطوعة، وقد ذاعت في بغداد على السنة الصبية والشباب والأدباء، وتحافظتها الأندية والمحافل، كما يصور لنا الدكتور شوقى ضيف<sup>(٢)</sup>، ومن الأشعار التي أوردها الدكتور للشاعر في وصف الشاه<sup>(٣)</sup>:

لسعيد شوهة	سلها الضر والعجف
قد تغنت وأبصرت	رجلاً حاملاً علف:
بأبي من بكفه	برء ما بي من الدنف
فأتاها مطعماً	وأتته لتعتلف
فتولى فأقبلت	تتغنى من الأسف:
ليته لم يكن وقف	عذب القلب وانصرف!

ومما أورده الدكتور للشاعر في الطيلسان<sup>(٤)</sup>:

وهبت لنا «ابن حرب» طيلساناً	يزيد المرء ذا الضعة اتضاعاً
ولست أشك أن قد كان قدما	لنوح في سفينته شرعاً
وقد غنيت إذ أبصرت منى	جوانبه على بدنى تداعى:
«قضى قبل التفرق يا ضاعاً	ولا يك موقف منك الوداعاً»

ونحن نورد هذين النموذجين الساخرين لهذا الشاعر الساخر، لأن السخرية والإضحاك أمران مشتركان بينه وبين «ابن الرومي»، وقد لاحظ أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ذلك الشبه بين الشاعرين ووقف عنده، بل لقد وازن بين الشاعرين في هجائهما خاصة، فانتهى إلى أن «الحمدوني» لم يكن يقل عن «ابن الرومي» سخرية وإضحاكاً، لأنه كان إذا سلط أهاجيه على

(١) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٢) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مرجع سابق، ص ١٠٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٤) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مرجع سابق، ص ٤٣٧، والبيت الأخير مطلع قصيدة مشهورة للشاعر الأموى «القطامى» وهو تضمنين يلجأ إليه «الحمدوني» كثيراً.

أحد لم يبق فيه باقية، إذ كان ما يزال يقذف أبياتاً سامة تؤذي من تسقط عليه إيذاءً شديداً، ويا ويل من كان يجعل مكافأته له في المديح قليلة أو يهديه هدية لا تروقه، فإنه كان يسيل عليه لسانه بأبيات ساخرة مضحكة<sup>(١)</sup>. وكان الناس في بغداد ما يزالون ينتظرون من «الحمدوني» مقطوعات في شاة «سعيد بن أحمد» و«طيلسان» «ابن حرب»، ضاحكين مهللين، وبالمثل كانوا ينتظرون أهاجي «ابن الرومي» الكاريكاتورية، وكأنما كانت أهاجي الشعراء تقوم منهم مقام المسارح الهزلية في عصرنا وما تقدمه من شخص فكهة<sup>(٢)</sup>.

يتضح من الموازنة أن «الحمدوني» و«ابن الرومي» يقعان في رأي أستاذنا في مستوى فني واحد، من حيث إجادتهما لفن السخرية والإضحاك الذي عمرت به أهاجيهما، ولكن ما يلفت النظر هنا، أن أستاذنا لم يشر إلى محاكاة «ابن الرومي» مرات كثيرة لفن «الحمدوني» في الشاة والطيلسان، وربما يكون ذلك راجعاً إلى أن أستاذنا عند كتابته تلك السطور، لم يكن قد اطلع بعد على ديوان «ابن الرومي» في صورته الكاملة التي قام بإخراجها أستاذنا الدكتور «حسين نصار» في ستة أجزاء، ولو أنه كان قد اطلع على الديوان الكامل، لما فاته أن يرصد تلك المحاكاة التي تجعل من «ابن الرومي» تلميذاً لفن «الحمدوني» في هذا الاتجاه الساخر، حتى لو كان التلميذ قد ضارح الأستاذ، أو تفوق عليه في بعض المرات، وقد يكون من المفيد هنا أن نورد أمودجين من شعر «ابن الرومي» الذي حاكى فيه شعر «الحمدوني» في الشاة والطيلسان، فمن قوله في الطيلسان<sup>(٣)</sup>:

ولى طيلسان ناحل غير أنه	ثبوت لهبات الرياح الزعازع
وما ذاك إلا أنه متهتك	يخلى سبيل الريح غير منازع
أراه كضوء الشمس بالعين رؤية	ويتعنى من لمسه بالأصابع
شكى ثقل اسم الطيلسان لضعفه	فسميته ساجا فهل ذاك نافعى

أما قول «ابن الرومي» في الطيلسان فهذا أمودج له:<sup>(٤)</sup>

يا «ابن حرب» كسوتى طيلساناً	يتجنى على الرياح الذنوبا
طيلسان إذا تنفست فيه	صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا
وتهب الرياح في أرض غيرى	فتهب الغزور فيه هوبا
تتغنى إحدى نواحيه صوتا	فتشق الأخرى عليه الجيوباً

(١) د. شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مرجع سابق، ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٣) ديوانه، تحقيق د. حسين نصار، ج (٤)، ١١٥٢/١٤٩٥.

(٤) ديوانه، ج (١)، ١٦٧/٢٣٠.

فإذا ما عدلته، قال: مهلا      لن يكون الكريم إلا طروبا  
طال رفوى له فأودى بكسبى      يا «ابن حرب» تركتى محروبا

ولعل هذين النموذجين وغيرهما من النماذج المثيلة في ديوان «ابن الرومي» يوضحان كيف أن الشاعر قد اندفع في تقليد فن «الحمدوني»، ويلقيان بضوء آخر على العلاقة بين الشاعرين وفنهما الساخر.

بين «ابن الرومي» و «أبي تمام»

مع أن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف يُدرج «أبا تمام» بين أعلام شعراء العصر العباسي الأول، إلا أن ذلك لم يحل دونه ودون الاهتمام بأوجه الشبه والاختلاف بين علم العصر العباسي الأول، وعلم العصر العباسي الثاني.

وبينا يدرج أستاذنا «أبا تمام» بين أعلام مدرسة التصنيع، فإنه يستبعد «ابن الرومي» من هذه المدرسة رغم أوجه الشبه الظاهرية بينه، وبين «أبي تمام» ويسجل كيف أن فكر «ابن الرومي» الدقيق، وما انطبع في عقله من طوابع الثقافة والفلسفة، كان حرياً به أن يصبح من أصحاب مذهب التصنيع، ومن ينظر إلى هذا الجانب عنده، يخيل إليه كأنه من طراز «أبي تمام»، وخاصة حين يقرأ له بعض أبيات مفردة أو قطعاً قصيرة مما تناقلته عنه كتب الأدب، ولكن من يقرأ قصائده يعرف أنه ليس من أصحاب هذا المذهب: مذهب التصنيع، إذ لم يكن يعنى بالزخرف، لا في شعره، ولا في حياته إلا قليلاً، وكأنه كان يأتي بما يأتي به من هذا الزخرف أحياناً مجازاة للعصر، وحقا شغف شغفاً شديداً بالتصوير، ولكن هذا الشغف لا يخرج من دائرة الصانعين، كما لا يخرج من دائرتهم ثقافته الفلسفية، وما يمتاز به من فكر عميق<sup>(١)</sup>.

هناك إذن دائرة المصنعين، وهناك دائرة الصانعين، وأستاذنا الدكتور شوقي ضيف يضع «أبا تمام» في الدائرة الأولى، بينما يضع «ابن الرومي» في الدائرة الثانية، فالصنعة عنده كانت أقل تعقيداً وتعهداً عما كانت لدى سلفه، على أن الدائرتين ليستا مغلقتين تماماً، فكثيراً ما كان يحدث تأثير واضح من الصانعين بالمتمتعين، يقول أستاذنا مفصلاً ذلك<sup>(٢)</sup>: «ومهما يكن فإن «ابن الرومي» لم يستطع أن ينتقل لصناعته من دائرة الصانعين إلى دائرة المصنعين، لأنه كان يفهم الشعر بصورة أقرب من الصورة التي علقت بأذهان أصحاب التصنيع، فلم يكن يعتقد مثلهم بأن الشعر جهود عتيقة يبذلها الشعراء، في استحداث تلك الزخارف الدقيقة التي شغف بها «أبو تمام» وأمثاله، ليس الشعر زخرفاً وتصنيعاً، بل هو تعبير، ومن الممكن أن يضاف إلى هذا

(١) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

(٢) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مرجع سابق ص ٢١٦ - ٢١٧.

التعبير شيء من الحلى والوشى، المرصع، ولكن في خفة، وبدون أن يعتمد ذلك الشاعر تعمدًا، يخرج به عن غرضه الأساسى من التعبير عن خواطره إلى التعبير عن ألوان التصنيع الأنيقة، ومن هنا كانت جماعة الصانعين تستعير أدوات التصنيع في بعض الأحيان، ولكن دون أن تستمر في ذلك، ودون أن تتخذها مذهبًا في صناعتها، قد تطبقها ولكنها لا تستمر في التطبيق، وربما أخفقت في هذا التطبيق، كما أخفق «البحترى» في كثير من طباقه، وكما أخفق «ابن الرومى» أحيانًا في استخدامه للفلسفة كزخرف جميل، فقد رأينا يقف في هذا الجانب عند استعارة الصياغة المنطقية، بينما رأينا «أبا تمام» يستخدم الفلسفة فيعقد بها في طباقه، ويستخدم هذا اللون الجديد من نوافر الأضداد».

وهكذا فإن الموازنة تجيء هذه المرة لصالح «أبي تمام»، فلم يكن «ابن الرومى» ليرقى عند أستاذنا إلى توظيف الفلسفة بنجاح، كما فعل «أبو تمام» لم يكن ليوقف في تصنيعه عند مستواه، وإن كان أحيانًا يلزم نفسه ما لا يلزم خاصة في القافية، حين عمد إلى محاكاة الشاعر الأموى «كثير عزة» الذى نظم قصيدة تائية التزم فيها قبل التاء حرف اللام، ففعل «ابن الرومى» ذلك في طائفة من قصائده، ثم جاء «بو العلاء الذى عمم هذه الطريقة في ديوان ضخم هو اللزوميات<sup>(١)</sup>، ولا شك أن فى ذلك ضرب من ضروب التصنيع الذى تنتشر ضروب أخرى منه فى ديوان «ابن الرومى».

#### حياة «ابن الرومى» وشخصيته:

إن القارئ لكتب أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، يستطيع أن يعثر على ترجمة وافية لحياة «ابن الرومى»، كما يستطيع أن يقف على تحليل متماسك لشخصيته ومزاجه وعلاقته برجال عصره.

إن الخطوط الرئيسية العامة لحياة «ابن الرومى» والحوادث المهمة التى أثرت فى شخصيته مبسطة عند أستاذنا خاصة فى كتابيه (العصر العباسى الثانى)<sup>(٢)</sup> و ((الفن ومذاهبه فى الشعر العربى)<sup>(٣)</sup>، حيث نتعرف على نشأته الأولى وأصوله الرومية من جهة أبيه، والفارسية من جهة أمه.. ونراه يفخر بذلك - شعرا - فيقول:

كيف أغضى على الدنية والفرس خنولى والروم هم أعمامى؟!

ثم نصطحب الشاعر منذ مولده سنة (٢٢١) للهجرة، حيث لم تكد تتقدم به الأيام حتى توفى

(١) د. شوقى ضيف، فصول فى الشعر وتقدمه، مصدر سابق، ص ٤٣.

(٢) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٢٩٦ - ٣١٢.

(٣) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، مصدر سابق، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

أبوه، فكفلته أمه وأخخ كبر منه، ونراه يتجه إلى الثقافة المعاصرة له وإلى الشعر ورواي القديم والحديث منه، ولم يلبث أن جرى على لسانه، فتهادته النوادي والمحافل في بغداد، كما تهاداه الوزراء وكبار رجال الدولة، فمدحهم ونال عطاءهم، وابتسمت له الحياة قليلاً، غير أنها سرعان ما عبست، فماتت أمه ومات أخوه، وتزوج وأنجب أطفالاً، إلا أن القدر أخذ يعصف بهم واحداً وراء الآخر، وماتت زوجته<sup>(١)</sup>.

ونصحب «ابن الرومي» في رحلته في الحياة مع ممدوحيه وأصدقائه من رجال العصر، كما صورت هذه الرحلة ريشة أستاذنا بتركيز ودقة.

فمن ممدوحيه «محمد بن عبد الله بن طاهر» حاكم بغداد، الذي رثاه الشاعر عند مقتله عام (٢٥٢) للهجرة، ومنهم كذلك أخو ذلك الحاكم «عبيد الله بن عبد الله بن طاهر» الذي كان أكثر الطاهريين معرفة وأديباً، وله كتب مصنفة مختلفة، وأغان مدونة، وهو أقرب ممدوحى «ابن الرومي» إلى نفسه، فقد أغدق عليه جوائز وأموالاً كثيرة، وكان شاعراً يحسن فهم الشعر وتذوقه، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة، وقد وقف مع «ابن الرومي» ضد «البحترى» في الخصومة التي جرت بينهما، فكان بذلك ممثلاً للذوق الجديد في الشعر لعصره، ووجد فيه «ابن الرومي» راعيه المادى الذى يجزل العطاء، وراعيه المعنوى الذى ينو بأشعاره، ويصفق لطرائفه استحساناً، ويقف ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال «البحترى»<sup>(٢)</sup>. ومن هؤلاء الممدوحين أيضاً «أحمد بن إسرائيل» وزير المعتز لسنة ٢٥٣ هجرية و «أحمد بن ثوابة» كاتب القائد التركى «بايكباك»، و «إسماعيل بن بلبل» رئيس ديوان الضياع، ووزير المعتمد فيما بعد، ومنهم كذلك «سليمان بن عبد الله بن طاهر» الذى بدأ «ابن الرومي» بهجائه انتصاراً للخليفة المخلوع «المعتز»، ومنهم كذلك «صاعد بن مخلد» وابنه «العلاء بن صاعد»، ومنهم «إبراهيم بن المدبر» ممدوح «البحترى» ورئيس ديوان الرسائل، وغير هؤلاء الأعلام من رجال الدولة وكبار مسئوليتها، نجد هناك مديحاً في ديوان «ابن الرومي» لبعض ذوى البيوتات - كما يعبر أستاذنا - في بغداد وفيما حولها من المدن والضواحي، ومن نراهم ماثلين في ديوانه «بنو قياض» و «بنو نويخت» وهما أسرتان من أصول فارسية، وكذلك «بنو حماد» قضاة بغداد<sup>(٣)</sup>.

أما أصدقاؤه الذين يردون في ديوانه، فهم كثيرون، ويجعلنا أستاذنا نقف على معظمهم، ونطلع على صلة الشاعر بهم، ومن هؤلاء «أبو عثمان الناجم» الشاعر وراويه «ابن الرومي» وتلميذه،

(١) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربى، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

(٢) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣٠٢.

(٣) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

ومنهم «ابن المسيب» الكاتب و «أحمد بن عبيد الله» و «أحمد بن بشر المرشدي» الكاتب و «علي بن يحيى المنجم» أحد كبار مثقفي العصر، الذي كان يمتلك مكتبة عظيمة - وكان شاعراً وندماً رقيقاً للخلفاء من «المتوكل» إلى «المعتد»، ولا يعرف بالضبط بدء اتصال «ابن الرومي» به، وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة وله يعاتبه<sup>(١)</sup>:

لتهنأ رجال لا تزال تجودهم      سحائب من كلنا يديك مواطر  
عنيت بهم كأنك والد      لهم وهو - دوني - بنوك الأصاغر

ومن هؤلاء أيضاً نديمه الشاعر «حجظه» الذي كان يتخذه للهزء به وللفكاهة، ويسرد لنا أستاذنا أسماء العديد من خصوم الشاعر الذين هجاهم هجاءً مقذعاً، ومن هؤلاء «مقال» و «إبراهيم البيهقي» و «أبو حفص الوراق» و «ابن أبي طاهر» و «ابن الخبازة» و «خالد القحطبي»، فقد كان يشب مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس، وكان دائماً هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله، وتعرض بالهجاء لبعض اللغويين وأصحاب الأدب مثل «المبرد» لأنه كان يقف في صف «البحترى» ضده، وتبعه تلميذه «الأخفش» في هذا التعصب، وكذلك «نفظويه» النحوي، ولم يسلم هؤلاء جميعاً من أهاجيه<sup>(٢)</sup>.

ويحرص أستاذنا علي أن يبين لنا طباع «ابن الرومي»، ويرسم معالم شخصيته التي كان التشاؤم أهم عنصر فيها، وكذلك حدة المزاج<sup>(٣)</sup> التي أثرت كثيراً في شعره وعلاقته بممدوحية علي الأخص، حيث كان كثيراً ما ينقلب ضد الممدوحين إذا لم يصلوه علي نحو يرضيه، وخير مثال لذلك «آل وهب» الذين تحولت إليهم الوزارة عام ٢٧٨ للهجرة، وقال «ابن الرومي» في أحد أعلامهم «عبيد الله بن سليمان بن وهب»<sup>(٤)</sup>:

إذا أبو قاسم جادت يداه لنا      لم يحمد الأجودان: البحرُ والمطرُ  
وإن مضى رأيه أو حد عزمته      تأخر الماضيان: السيفُ والقدرُ  
وإن أضاءت لنا أنوار غرته      تضاءل النيران: الشمسُ والقمرُ  
ينال بالظن ما يعيب العيان به      والشاهدان عليه: العينُ والأثرُ

لكنه لم يلبث أن هجاه وهجا «آل وهب» جميعاً عندما لم يصيخوا له، ففسد ما بينه وبينهم فساداً لا يمكن رآبه.

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٩، والبيتان في الديوان، جـ (٣).

(٢) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني - مصدر سابق، ص ٣٠٩.

(٣) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصدر سابق، ص ٢٠٢.

(٤) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصر سابق، ص ٣١٠، ٣١١، والأبيات في ديوانه جـ (٣).

## فن ابن الرومي:

نجد في كتابات أستاذنا حفاوة بالغة بشعر «ابن الرومي»، فهو يعرض لأغراضه الشعرية في كتابه (العصر العباسي الثاني)، فيلمس في هجائه لونين، أحدهما يميل للسخرية اللاذعة، أما اللون الآخر فيميل للنزعة الكاريكاتورية<sup>(١)</sup>، كما يفرق بين هجائه الفردي وهجائه الاجتماعي<sup>(٢)</sup>، كما يعرض لمديحه ويضع يديه على ما فيه من تنوع وتجديد، أما الرثاء والعزاء عنده فيربطها بالتشاؤم وبأخيلة الموت عند الشاعر<sup>(٣)</sup>، ويعرض كذلك لغزله، ويلاحظ خلوه من الغزل بالمذكر، كما يعرض لخصرياته ولو وصف مجالس اللهو والسماع وغير ذلك من فنونانفرد بها «ابن الرومي» وتميز بها شعره، مثل وصف الطعوم والفواكه ووصف الطبيعة الذي عده أستاذنا من رواه<sup>(٤)</sup>، وقد تصدى أستاذنا في هذا المقام لرأى «العقاد» في كتابه عن «ابن الرومي» حيث فسر «العقاد» تفوق «ابن الرومي» في شعر الطبيعة بأن ذلك يعود إلى لورثة، فقد ورث «طابن الرومي» حب الطبيعة من أجداده اليونان، ولكن أستاذنا يفند هذا الزعم ويرده محتجاً بأن اليونان لم يعرف عندهم شعر الطبيعة، هم ملثوها بالآلهة، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند «ابن الرومي»<sup>(٥)</sup>، وقد أصر أستاذنا في موضع آخر، على أن الوراثة ليست كل شيء في شعر «ابن الرومي» إذ ينبغي أن نضيف إليها الثقافة اليونانية الإسلامية التي كان يتتقنها الشعراء في القرن الثالث، فعند «ابن الرومي» يونانية أصيلة ويونانية مكتسبة لعلها أهم من يونانيته الأصلية، وهناك أيضاً ثقافة إسلامية وعربية مكتسبة<sup>(٦)</sup>.

ومن الأغراض الأخرى التي وقف عندها أستاذنا في شعر «ابن الرومي» الزهد، وقد فسره بالتشاؤم الذي كان عليه الشاعر<sup>(٧)</sup>، وجعل من «ابن الرومي» متفوقاً في هذا الفن الشعري حتى إن أحداً لم يرسم صورة الزاهد في عصره كما رسمها هو، وفي هذه الصورة نرى الزاهد ساهراً طوال الليالي والأسحار، يسبح بذكر الله ويثني على آلائه ويتلو آيات كتابه، وكلما مرت

(١) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصدر سابق، ص ٣١٥.

(٢) د. شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مصدر سابق، ص ١٠٢.

(٣) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصدر سابق، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٤) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصدر سابق، ص ٢٠٨، ٢١٠.

(٥) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصدر سابق، ص ٣٢١، ٣٢٢.

(٦) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصدر سابق، ص ٢٠٢.

(٧) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصدر سابق، ص ٣٢٣.

به آية وعيد ذرفت عيناه الدموع ضارِعًا إلى ربه أن يتجيه من عذاب النار، وأن يغفر له خطيئاته وسيئاته<sup>(٢)</sup>.

بات يدعو الواحد الصمدًا	في ظلام الليل منفردًا
في حشاه من مخافته	حركات تلذع الكبدًا
كلما مر الوعيد به	سح دمع العين فاطردا
قائل: يا منتهى أملى	نجنى مما أخاف غداً
وخطيئاتي التي سلفت	لست أحصى بعضها عددًا
ويح عيني ساء ما نظرت	ويح قلبي ساء ما اعتقدًا

ولم يقف أستاذنا عند أغراض «ابن الرومي» فحسب، بل مضى يحلل فنه الشعري تحليلًا نقديًا بارِعًا سواء من حيث اللفظ، أو من حيث المعنى، أو من حيث الشكل والمضمون، فلاحظ في معانيه ظاهرة الاستقصاء<sup>(٢)</sup> والاعتماد على المحاجة العقلية المنطقية<sup>(٣)</sup>، واللجوء إلى الإطالة حتى لقد تربو بعض قصائده على ثلاثمائة بيت<sup>(٤)</sup>.

وقد وقف مرة أخرى ضد «العقاد» في تفسيره للإطالة عند «ابن الرومي»، بأن مرجع ذلك يعود إلى أن الشاعر كان يطيل القصائد حفاوةً بالمدوحين، أو إكبارًا لشأنهم، وإظهارًا لعنايته بإرضائهم، وقد رد أستاذنا على هذا الرأي بأن الإطالة عند «ابن الرومي» تعود إلى استخدامه للصياغة المنطقية في قصائده؛ فشغف بهذا الطول الذي هو من أخص صفات من يريدون التعبير المنطقي الواضح، وأن ثقافة «ابن الرومي» قد أحدثت في شعره هذا النوع الغريب من الطول في نماذجه، فإن الشعر عنده لم يعد تعبيرًا لعاطفة فقط، بل أصبح تعبير العقل قبل أن يكون تعبير العاطفة، وبذلك عمه غير قليل من التحليل والتفصيل، والبحث والتحقيق<sup>(٥)</sup>.

ويشير أستاذنا كذلك إلى ثقافة «ابن الرومي» وأثرها على شعره، كما يلمس أثر ميله للتشيع من جهة، وللاعتزال من جهة أخرى على كثير من قصائده، ولا ينسى أستاذنا أن يشير أيضًا في ثنايا كتبه المختلفة، إلى أهم الخصائص الفنية في شعر «ابن الرومي» مثل الميل للتجسيم

(١) د. شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مصدر سابق، ص ١٢٥، والأبيات في الديوان جـ(١).

(٢) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصدر سابق، ص ٣١٥.

(٣) د. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، مصدر سابق، ص ١٥٦.

(٤) بلغت إحدى لامياته (٣٣٧) بيتًا، انظر ديوانه، تحقيق د. حسين نصار، جـ(٥)

(٥) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصدر سابق، ص ٢٠٦.

والتشخيص<sup>(١)</sup> وشعبيته في اختيار الموضوعات وفي التعبير عنها، واعتماده على فن التصوير من خلال قدرة غريبة على ملاحظة دقائق الأشياء وتصويرها تصويراً بارعاً<sup>(٢)</sup>، كما أشار أيضاً إلى تجديده في القوافي ولزوم ما لا يلزم فيها، وكذلك إلى تجديده في حذف المقدمة أحياناً أو المبالغة في إطالتها أحياناً أخرى<sup>(٣)</sup> مع التنوع فيها<sup>(٤)</sup>، إلى غير ذلك من خصائص فنية مختلفة امتاز بها شعر «ابن الرومي».

والحق أن أستاذنا يقدم في كتاباته لوحة متكاملة لحياة «ابن الرومي» ولأغراض شعره، ولخصائص هذا الشعر الفنية مع مقارنة فن الشاعر بفنون معاصريه من الشعراء الأعلام، وهو يستند في هذا التحليل النقدي التطبيقي على أساس راسخ متين من الثقافة النقدية النظرية التي تضرب بجذورها في تراثنا العربي من جهة، وفي التراث النظري الغربي من جهة أخرى. ولعل الجمع بين تراثنا وتراث الغرب مع عدم الخلط بينهما، هو الذي جعل من أستاذنا ناقدًا رائدًا يميل إلى الاتزان والوسطية في ميوله وأحكامه، فلا يتحفظ مع المحافظين، ولا يتطرف مع المتطرفين، بل يقف موقفًا وسطًا قريبًا من روح تراثنا، ويعبر عن ذلك الموقف صراحة في ثنايا كتبه وأبحاثه<sup>(٥)</sup>.

ولئن كان هناك بعض النقص في الصورة التي قدمها أستاذنا الكبير شوقي ضيف لشاعر فذ مثل «ابن الرومي»، فإن هذا النقص لا يعود إلى تقصير من أستاذنا، قدر ما يعود إلى النسخة الناقصة التي اطلع عليها أستاذنا من ديوان الشاعر، وربما تأخذ على أستاذنا إغفاله لشعر «ابن الرومي» الخارج أخلاقياً ودينياً مع أنه ينادى في كتبه بفصل الشعر عن الأخلاق والدين<sup>(٦)</sup>. ولكن ينبغي أن نجد بعض العذر له في بيئة محافظة متمزعة كالبيئة العربية المعاصرة. تحية لأستاذنا العظيم ولجهوده الرائدة في تحليل التراث الشعري، وتقديمه في أبهى صورة للقارئين والباحثين والنقاد..!

أحمد محمد عبيدان  
وزارة التربية والتعليم  
الدوحة - قطر

(١) المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٧.

(٣) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصدر سابق، ص ٣١٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٣١٣.

(٥) انظر مثلاً: د. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، المصدر السابق، ص ٨١، وص ١٧٥.

(٦) د. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، مصدر سابق، ص ٨٣.